بحوث فى الأدب الفرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية
فى فرنسا الحديثة

لأستاذ الأدب فى جامعة السربون ، دانيال مورنى ، Daniel Mornet

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

« فصول ملخصة من كتاب تاريخ الأدب والفكر الفرنسى الحديث لاستاذ الآداب فى جامعة السوربون ، دانيال مورنى ، تبحث تطور الشعر والرواية والنقد والتاريخ والفلسفة ، (١) ودانيال مورنى أستاذ له مدرسته التحليلية وطريقته الادبية التى يفرضها على آداب أمته فى هذا الجيل ! وهو مؤرخ للأدب بطريقة خاصة يكاد يكون بها نسيج وحده . تقرأ كتبه ومقالاته فتشعر باطلاع واسع عميق وجهد كبير وفكر حال لستطاع أن يقرأ ويفيد ويحلل فتأخذ منه ما اوجزه فانا به يخفى على سطوره القليلة ما يفنى !

يكتب بأسلوب سهل كتابة يغلب عليها الاسلوب الأدبي طورا والاسلوب التحليلى تارة ، وهو فى كل ذلك حى تجري حياة الفكر فيه ، يكتب عن المدرسة الادبية أوحياة الاديب صفحة أوصفحتين ويقف وإنك لراغب فى الزيادة ! ولكن وقوفه هو الحاجز الذى يجب ان يقف عنده . ولن يمضي زمن حتى ينشأ هذا الاسلوب الموجز فى تحليل الادب وتبيين مواقفه الحاسمة. واشهر كتبه المنشورة تاريخ شامل للأدب الفرنسى قديمه وحديثه . وتاريخ لمراحل خاصة للعقل الفرنسى وقد احببت ان ادرس هذا الكتاب لانه درس شامل لعقل وادب . لا يذهب وراء الخيال كثيرا كأنه كل شيء ، ولا ينطلق وراء العقل كثيراً كأنه كل شيء . .. لأن صاحبه يرى التأثير متبادلا بينهما ، ففيه ترى تأثير العلم فى تطور الادب وتأثير الادب فى الفلسفة . وفيه يرى اصحابنا تأثير النظريات الفنية والعلمية فى توجيه الأدب ؟

« خ ، ه »

رقية العلم عام ١٨٨٠

لم تبلغ العلوم الطبيعية من الذيوع والقوة مابلغته فى أواخر القرن التاسع عشر . فإن أهم اكتشافاتها ومخترعاتها إنما تمت فى عهد قبل عهد الأواخر . فكتاب « داروين » مثلا عن أصل الأنواع إنما ظهر عام ١٨٥٩ وكذلك فى الأعوام الأخيرة نشأت اكتشافات جديدة غمرت الأرض وألقت فى أخلادهم أن العلم قادر على تبديل الحياة الاجتماعية وغير عاجز عن تغيير الحياة ذاتها . وساعدت على نشر هذا الاعتقاد الانتصارات المتتالية فى كل ميادين العلم . ولم يقبل عام السبعين حتى ازداد هذا الاعتقاد عنفا ورسوخاً حتى اعتنقه بعضهم كما يعتنق ديناً . على أن الناظر لا يرى خلقا جديداً فى مذاهب العلم وأساليبه وأصوله ، ولكن غير العلماء كانوا يتحرون فى أصوله عن النور الذى ينبغى له أن ينير مسالك الحياة الاجتماعية والحياة الخاصة وما قدر لها . فـ « رينان وتين » قد جمعت آثارهما قبل عام السبعين ولكن الشباب لم يتخذ منهما قائدين إلا بعد هذا العام . وهكذا انتشر سلطان العلم وغلب على كل سلطان وطغى على الأدب وأصبح موضع الأنظار . وأعلن أحد رسل العلم « برتلو » بعد اكتشافه فى الكيمياء مذهب تأليف الأجزاء المتفرقة بأنه بواسطة هذا المذهب يستطيع إنسان الغد أن يصبح المسيطر على عالم الأجساد والنفوس . فهو يضع غذاءه ويخلق عصير الرفاهية التى تتجلى فيها المساواة والاخاء إزاء شريعة العمل المقدسة . كل شيء سجله العلم ويخلقه خلقا جديداً . وكذلك شأن الأخلاق يدركها هذا التطور الذى أدرك الطبيعة

كل شيء فى الحقيقة ينتظم ليخضع كل فكرة إنسانية لقوانين العلم . وقد كان علم طبقات الأرض وعلم الآثار القديمة والتوسع فيها كانا ذائعين فى القرن الثامن عشر قبل أن تتفجر عن العلم اكتشافاته وتزداد حركته . وهنالك مجامع كثيرة قامت ومدارس نشأت تطلب أن تقيم الدراسة المحض للحقائق بدلا من الركض وراء الخطرات الخيالية اللامعة على غير جدوى . ولكن هذه المطالب كانت لا تزال تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فيها تردد غير المطمئن وشك غير المؤمن . فبقى التعليم وجامعاته والنقد وحركاته أمينة لمذاهب الأدب القديمة التى تعتمد على الذوق والذهاب إلى إحياء فن الأوائل بالخيال ، حتى بزغ عام السبعين فبدأت الأذواق تنفر من هذه الأخيلة . ودعا الأدباء الى اعتناق علم « الالمان » الذين ربحوا الحرب ، ليكون منهم علماء فى دراسة اللغات ومؤرخون وأساتذة ، وأن تكون دراساتهم مرتكزة على بحث الحقائق وتجريدها ونقدها نقداً علمياً . وقد طغت هذه الدعوة العنيفة على جامعات فرنسا وغزت مجامعها الأدبية . فتغير الأسلوب وتبدلت المناهج ، ونرى أثر ذلك فى

(١) حقوق التعريب والنشر باذن المؤلف

مدرسة (أثينا) الفرنسية التي أخذت تنهج فى الدرس نهجاً حديثاً، وفى بقية مدارس أنشئت لهذه الغاية كمدرسة (روما) ومدرسة القاهرة ، وفى بعض مجلات علمية أنشئت لتعمل على تشجيع هذا المذهب الجديد !

وقد سرى هذا الارتجاج الى الفلسفة فخالت أن العلم يبدل منهجها . وبدا أثر هذا الارتجاج فى الدراسات النفسية التى كانت تعتمد على الدرس الباطنى فبدل نوع هذا الدرس وجاءوا بعلم جديد لدرس النفس لا يعتمد الا على الفحص والتجريب والبرهان. وخزانة الفلسفة الفرنسية لا تزال طافحة بهذا النوع الجديد من الدرس كآثار الفيلسوف « ريبو » فى معالجة أمراض الذاكرة والارادة والشخصية . وكلها أبحاث قائمة على الفحص العلمى والبرهان العملى الذى لا مجال للخيال فيه وهى تثبت أن أصول علم النفس الروحانى لا تتلاءم مع الأعمال ، وأننا بدرسنا ـ علمياً ـ لفساد المادة الدماغية ندرس كذلك فساد الفكرة التى لابد أنها مظهر من مظاهرها وأثر من تأثيرها .

أما علم درس المجتمعات فهو لا يشبه العلم فحسب ، بل يجب أن يكون علماً صارماً فى تطبيق مبادئه وفى تطبيق نتائجه ، كما هو الحال فى علوم الطبيعة . ولم ينشأ هذا العلم فى فرنسا الا بعد عهد ، ولكن هذا لا يمكن أن يكون وليد المذاهب العقلية . وإنه علم ومنطق يراد به خلق أصوله ومذاهبه . وقد وقف العالم « دوركهايم » جهوده على القول بأن الحوادث الاجتماعية هى حوادث مخصصة معينة يجب اعتبارها كأنها خاضعة لقوانين خاصة يكتشفها علم الاجتماع كما يكتشف علم الطبيعة قوانين الطبيعة

وهنالك فئة علمية تدين بالعلم . هذه الفئة التى قدم لها « رينان » كتابه « مستقبل العلم » هذه الفئة هى التى مشت وراء تعاليم « دارون » وعلى هذه الفئة ثبت مستقبل العلم ومستقبل الديموقراطية ، وفى الحقيقة كانت الجمهورية الفرنسية متقلقلة متزعزعة حتى عام ١٨٨٠ ، فتألب رجال السياسة والصحافة على استنقاذها من مأزقها، فعمدوا الى التبشير بكلمات « برتلو » بالمساواة والحرية والاتحاد والسعادة ، بالعمل على تأييد العلم الذى يجازى العاملين من أجله بالسلامة والعافية ورفاهية العيش ، وهو الذى سيحل عقدة الحياة والوجود .

ان هذه الرقية العلمية غزت الأدب فيما غزت وكان لها فيه تأثير بليغ ؟

خليل هنداوى

دمعـــة وفاء

على المرحوم الأستاذ غانم محمد

بمناسبة مرور اربعين يوما على وفاته

للأستاذ زكى نجيب محمود

أحقاً يا غانم حم القضاء وقام فيك الرثاء ؟ أحقاً طحـ بدوحك العاتى منجل الفناء ؟ وأجيعتاه ؟ قم إذن يا صاح فاهتف بالمحاجر أن تسح الدمع هتوناً سخيناً ، وبالحناجر أن تسكب ذوب النفوس أنيناً حزيناً .

عجباً ! أستطاع الدهر فى لمحة من الزمن ، أن يطوى الشمس فى ظلمة الرمس ؟ أستطاع الموت بلفظة فى لحظة أن يدك طوداً كان شامخاً بالأمس ؟ أفى اليوم الذى نرجو للأمة فيه غانماً وغانماً ، نهوى مخلب الموت ، بين أشاجعه رعب القدر ، وننظر فاذا غانمنا الواحد قد افتقدناه فى مثل اللمح بالبصر ؟ حنانيك يا رباه ! أأصبت بالمنية غانماً أم أصبت عشيرة فى رجائها ؟ أرميت بالبلية رجلا أم رميت الرجولة فى سويدائها ؟ فما كان فقيدنا فى عداد القوم واحداً كسائر الآحاد ، بل كان ينبوعاً للرجولة دافقاً ، وقلباً للوطنية خافقاً ، يمتلىء همة حتى ليسكب الهمة فى بنيه ، ويشتعل حماسة حتى ليبث الحماسة فى مواطنيه ، لا يدخر فى سبيل ذلك ما وسعه من جهد اللسان والقلم . فهأنذا أطوى الليالى القهقرى أعواما ثلاثة ، فاذا بالمطبعة العربية تذيع فى الناس كتاباً لا يخطف العين مظهره ، ولا يضج به فى الناس منشئه ومسطره : جان دارك تأليف غانم محمد .

أقبلت على الكتاب حينئذ ، ولم أكن أدرى عن صاحبه إلا أشتاتاً منثورة ، فحسبته بادىء الأمر كتاباً من الكتب أخرجه للناس كاتب من الكتاب ، فما هى إلا صفحات عشر أتلوها حتى همست لنفسى قائلا : كلا ! تالله إن الرجل لكاتب بارع وأديب قدير ، اختلجت فى نفسه الفكرة عنيفة جبارة . تنشد التصوير والتعبير ، فاستجاب لدعوة القلم وكأنه فولتير يثور فيسطر فيثير . نعم لم تكن إلا صفحات عشرا أتلوها حتى أيقنت أن الكاتب منتش مخمور ، قبس من صحائف التاريخ